الحلقة المفقودة

بقلم
محمد مهدى علام
أستاذ التربية بدار العلوم

تمهيد

إن لهذه المقالة تاريخاً شائقاً يحمل أن نقدمه بين يديها : فمنذ عام ونصف عام شاء صديقنا الفاضل الأستاذ أحمد أمين أستاذ اللغة العربية المساعد بالجامعة المصرية، أن يحيي رجال «دار العلوم» فى أول عدد صدر من «الرسالة». فكتب مقالة فيما سماه «الحلقة المفقودة» فى علماء مصر، وهم الذين جمعوا بين الثقافتين الإسلامية والأوربية. وقد شاء صديقنا الكاتب أن يختص أبناء دار العلوم بالنصيب الأوفى من سهام جعبته؛ فكتبت يومئذ رداً على تلك المقالة، وعرضته على عدد كبير من الزملاء، فرأوا جميعاً — إلا واحداً — أن أنشر ذلك الرد فى الصحف. ولكنى رأيت أن الأستاذ احمد امين أكرم علينا من أن ننازله على صفحات الجرائد التى لا يقتصر قراؤها على خاصة القوم، وأننا أعز على أنفسنا كذلك من أن نجعل قضيتنا — إن كان ثمة قضية — مضغة فى أفواه الناس جميعاً. وكنت إذ ذاك أعد كتاباً للطبع فآثرت أن أجعل ردى مقدمة لذلك الكتاب؛ ووافقنى على رأيى ذلك الصديق الذى خالف جميع الزملاء. وقد شاءت الظروف ألا يطبع ذلك الكتاب إلى الآن، فبقى الرد مطوياً. فلما قررت «جماعة دار العلوم» إخراج صحيفتها رأيت أن أنشر هذا الرد فى أول عدد منها، كما نشر صديقنا الأستاذ احمد امين هجومه فى أول عدد من «الرسالة».

يدعى صديقنا المفضال أن رجال «دار العلوم» لا يمثلون إلا الثقافة

الاسلامية وحدها ، وأنهم لا يزالون حيث كانت مصر قبل اتصالها بأوربا : « إذا أنتجوا فعيب إنتاجهم أنهم لم يستطيعوا أن يفهموا روح العصر ولا لغة العصر ولا أسلوب العصر ، وإنما التزموا التعبير القديم فى الكتابة ، والنمط القديم فى التأليف ، وتحجرت أمثلتهم ومل الناس بلاغتهم ، وعمادها رأيت أسداً فى الحمام وعضت على العناب بالبرد وعشرة أمثلة من هذا الطراز . ومل الناس نحوهم ومداره ضرب زيد عمراً ورأيت زيداً حسناً وجهه . وسئم الناس منطقهم ، وكله الانسان حيوان وكل حيوان يموت فالانسان يموت وهذا حجر وكل حجر جماد فهذا جماد »

ويخيل إلى قارئ هذه المقالة أن كاتبها لا يعيش على أرض مصر ، ولا يتصل بعالم العلم والأدب فيها ، ولا بالثروة التأليفية التى نهضت فى هذا العهد ؛ أو أنه يعرف كل ذلك ولكنه — لسبب ما — لا يريد أن يعترف به . والحق أنى أنزه الأستاذ الفاضل عن كلتا النقيصتين ؛ ولكن عليه هو — لا علىّ أنا — أن يبحث عن مخلص ثالث لما تورط فيه قلمه .

وأرانى فى غنى عن الافاضة فى الرد على مزاعم الأستاذ . وحسبى أن أذكر له ، على عجل ، عدة مؤلفات من أقلام رجال « دار العلوم » تفند دعواه التى ادعاها .

أفلم يأته نبأ النحو الحديث وكيف يدرسه رجال « دار العلوم » ، وكيف يؤلفون فيه ؟ — وأنا عن عمد أذكر التدريس هنا ، لأنه عمل أساسى لرجال « دار العلوم » يقومون به فى هدوء لا تصحبه جلبة ، وأمانة لا يشوبها الإعلان عن النفس ، ألا سامح الله من لا يزال يعتقد ، أو يريد ان يعتقد الناس ، ان معركة زيد وعمرو لا تزال قائمة فى المدارس المصرية ! وهل اطلع السيد مثلا على كتاب « النحو الواضح » لمؤلفيه

النابهين ، الأستاذين على الجارم ، ومصطفى امين ؟ هل اطلع على اجزائه الستة للمدارس الابتدائية والثانوية ، وكل جزء منها مفخرة من مفاخر التأليف ، يشرف مؤلفيه ، والمعهد الذى ينتميان إليه ؟ إن كان الأستاذ لم يطلع على هذا الكتاب فليسأل المدرسين فى سوريا ، وفلسطين ، والعراق وبلاد المغرب ، فلعلهم أعرف بفضل هذا الكتاب منه .

وهل أتاه حديث « النحو المصور » نعم النحو المصور الذى يقف أمام العدسة ليخرج للتلاميذ ، بدلا من معركة زيد وعمرو التى ملكت على الأستاذ نفسه . صورا فتانة للنحو وقواعده ؟ وأنا أرجو صديقنا الكريم أن يطلع على هذا الكتاب بأجزائه الثلاثة ، ثم يتقدم بالشكر ، شكر العلماء المخلصين — للأستاذين الجليلين ، زكى المهندس ، ومحمود السيد عبد اللطيف .

وهل سمع صديقنا العلامة بكتاب « البلاغة الواضحة » بجزئيه الكبيرين قبل أن يتجنى علينا بدعواه أن بلاغتنا قد وقفت عند رؤية الأسد فى الحمام ، والعض بالبرد على العناب ؟ ألا بارك الله فى أقلام مزجت بالأدب البلاغة ، وجعلت دراسة المعانى والبيان ، لذة للعقل والوجدان !

وليغفر الله للأستاذ جهله ، أو تجاهله ، بكتب المنطق التى أخرجناها للناطقين بالضاد ! وحسبى منها كتاب « علم المنطق الحديث » لصديقنا البحاثة الأستاذ محمد حسنين عبد الرازق ، أو كتاب « علم المنطق » لصديقنا الألمعى الأستاذ احمد عبده خير الدين ، فهى صفحة نخار لخير الدين ولدار العلوم . فيه يلتقى أحدث ما كتب مناطقة الأوربيين باعرق ما كتب مناطقة المسلمين .

وأنا أذكر هذه الكتب على سبيل التمثيل لا الإحصاء ، فان أقنعت المنكرين ، وإلا فلدينا العدد الذى نباهى بتقديمه . وبديهى أنى اقتصرت

على العلوم الذى ذكرها صاحب « الحلقة المفقودة » المزعومة . ولعل من الفضول أن أذكره بما أخرجته عقولنا فى الشريعة الاسلامية باقلام الأساتذة الأجلاء : محمد زيد ، واحمد ابو الفتح ، ومحمد سلامة ، وأحمد إبراهيم . وحسن منصور ، ومصطفى عنانى ، وعبد الوهاب النجار ، وعبد الوهاب خير الدين وغيرهم . وفى التربية وعلم النفس والفلسفة بأقلام الأساتذة الأعلام : حسن توفيق العدل . ومحمد شريف سليم ، ومحمد عاطف بركات ، وعبد الرحمن زغلول ، وعبد العزيز جاويش ، وأبو الفتح الفقى ، وأحمد عبده خير الدين ، ومصطفى أمين ، وعلى الجارم ومحمد حسنين عبد الرازق ، وشرف الدين خطاب ، وعلى العنانى ، وعبد الحميد حسن ، واحمد على عباس . وعبد الحميد خضر ، ومنصور سليمان ، ومحمد على مصطفى ، وصالح هاشم عطية ، وحامد عبد القادر ، وأبو العلاء عفيفى ، ومحمد عطية الابراشى ، وعلى عبد الواحد ، ومحمد مهدى علام .

ولأترك جانباً ما عدا ذلك من فروع العلوم المختلفة التى سجلنا فيها جهودنا ، لأنه يظهر أن الأستاذ لايقض مضجعه إلا القواعد ، وقد أنبأته بحديثها الحديث .

وهل نسى الأستاذ أن الأزهر يوم أراد الاصلاح الجديد لم يجد أمامه إلا رجال دار العلوم يستنجد بهم ليقوموا بهذا العمل النبيل . فيكونوا رسل الثقافة الحديثه إلى المعهد العتيد ؛ وها هم أولاء عشرات الأساتذة منا يؤدون هذه الرسالة الشاقة فى ذلك المعهد الموقر .

بل هل نسى السيد أن كلية الآداب بالجامعة المصرية ، التى يعتز صاحب « الحلقة المفقودة » المزعومة بأستاذيته فيها ، لا يقوم عبء التدريس فى قسم اللغة العربية فيها والنهضة بها إلا على شيوخ دار العلوم ؟ فاذا

استثنى الأستاذ نفسه ، وزميلا فاضلا آخر ، لم يجد في الجامعة إلا إخواننا الفضلاء : ابراهيم مصطفى ، وطه احمد ابراهيم ، وعبد الوهاب حمودة ، وأحمد الشايب ، وعبد العزيز احمد [1] .

على أنني أشعر بميل ملحّ لأن أسرّ في أذن الأستاذ كلمة بيني وبينه : هي أن يحدثني عن الأساتذة الذين كان لهم فضل تثقيفه في مدرسة القضاء الشرعي وفي الجامعة المصرية القديمة : فهل يسمح له أدبه المعروف بأن ينكر ما تركه في نفسه من أثر كل من أساتذته : عاطف بركات ، ومحمد الخضري ، وعبد الحكيم بن محمد ، وحسن منصور ، ومحمد المهدي ، وحفني ناصف ، وغيرهم ؟

أولئك آبائي ، فجئني بمثلهم ، إذا جمعتنا يا جرير المجامع !

وبعد فأنا نستغفر الله للأستاذ ، ولنا ! نستغفره للأستاذ لما ارتكبه قلمه من الشطط ؛ ونستغفره لأنفسنا ، لأننا فخرنا بأنفسنا وبمعهدنا فخراً ما كان لينطق به لساننا لولا أنه ساقنا إليه ، وحملنا عليه .

ولقد نكون في غنية عن كل هذا لاقناع الأستاذ احمد امين — فما نحسب أحداً غيره في حاجة إلى هذا الاقناع — ولكننا نطلب إليه في أدب ودعة ، ان يلقي بنظرة إلى اساتذة دار العلوم اليوم . فهم خمسة وثلاثون إخصائياً : منهم تسعة عشر ممن تثقفوا بالثقافة الاسلامية ، كما يعترف الأستاذ نفسه ؛ ومنهم ستة ممن تثقفوا بالثقافة الغربية وحدها ؛ ثم منهم عشرة من شيوخ دار العلوم الذين تلقوا العلم في انجلترة ، وفرنسا ، وألمانيا

(١) ولقد تغيرت الحال منذ كتبنا هذه المقالة . ولكن بما يزيدنا تأييدا فقد انضم إلى هيئة التدريس في الجامعة المصرية من إخواننا الأستاذان محمد عطية الأبراشي ، وعلي حسنين ، بل إن الذي يحتل كرسي اللغة العربية في كلية الآداب الآن هو أستاذنا وصديقنا العلامة الشيخ أحمد الأسكندري .

أفلا يرى معى صديقى الفاضل أن هـذه المجموعة من المدرسين تعز على كثير من المعاهد، وتكاد تصل إلى حد الترف العلمى؟ ولولا انى اريد ان انزه قلمى عن الطعن — ولو بحق — لقلت إنها لم تتح حتى الآن لقسم اللغة العربية بالجامعة المصرية [1].

أليس فى هـذا العـدد من المدرسين، وفى هـذه التشكيلة، الغنية مايقنع أخانا أحمد أمين بأن طلبة دار العلوم تثقفهم دار العلوم بالثقافتين الاسلامية والغربية؟ وبأن من الجرأة على الحق أن يقال فيهم إنهم جاهلون كل الجهل بما يجرى فى العصر الحديث من آراء ونظريات فى العلم والأدب والفلسفة لايسمعون بكانت وبرجسون، ولا بأدباء أوربا وشعرائها، ولا بعلمائها وأبحاثهم. اللهم إلا أسماء تذكر فى المجلات والجرائد والكتب الخفيفة لاتغنى فتيلا ولا تستوجب علما؟

وإنى أحمد الله أن أستطعت أن أوضح لصديقى العلامة أن الذى يتحدث إلى طلبة دار العلوم عن أوربا، وعلمها، وعلمائها، ليس الصحف والمجلات — مما يتعلم منه هواة العلم وأدعياؤه وملتقطو فتاته؛ ولكن الذين يتحدثون إليهم بذلك كله هم الأساتذة الاخصائيون الذين نهلوا وعلوا من أعظم جامعات العالم، جامعات إنجلترة، وفرنسا، وألمانيا.

على أنى أريد أن أجارى الأستاذ، جدلا، فى أن طلبة دار العلوم — أو على الأصح خريجيها — لايمثلون الحلقة المفقودة الموهومة. فهل لى أن أطمع فى إنصافه بالاعتراف بأن من خريجى دار العلوم عشرات

(١) لقد تغيرت الحال كذلك منذ كتبنا مقالتنا هذه ولكن بما يزيدنا تأييدا: فأساتذة دار العلوم اليوم سبعة وثلاثون إخصائيا: منهم عشرون من رجال الثقافة العربية الاسلامية، وسبعة من زملائنا الفضلاء خريجى المعلمين العليا وجامعات انجلترة، وعشرة من شيوخ دار العلوم المثقفين فى جامعات انجلترة وفرنسا وألمانيا

قد تموا دراستهم العالية فى جامعات إنجلترة ، وفرنسا ، وألمانيا ؛ وأن من الاسراف فى الطعن والتجريح أن يدعى مدع أنه حتى هؤلاء لا يمثلون ما يسميه الأستاذ « الحلقة المفقودة » . فى أمة أنا وهو نعلم عدد المتعلمين فيها ؟

وثمة غلط آخر قد وقع فيه صديقنا النابه . وأرجح الظن أن الذى أوقعه فيه هو خطؤه الأول فى الحكم علينا — لأسباب نحرض أنفسنا على اعتقاد أننا نجهلها — ذلك انه ادعى ان « إخواننا الهنود أسبق منا إلى إيجاد هذه الحلقة والانتفاع بها . » ثم اخذ يعدد لهم المفاخر ، التى يسرنا انه يصف بها شعبا شرقيا صديقا ، أكثر مما يسره أنها محاولة مخفقة لتأييد رأيه . فانه مافرغ من إطرائه إخواننا الهنود على إيجاد الحلقة المفقودة ، عندهم ، حتى سطر بقلمه ما ينقض كل ذلك ، ويهدم كل ادعاء بأن حلقة مفقودة قد وجدت فى الهند . وليستمع إليه القارىء حين يقول : « ولكن الهنود يعرضون وأسفاه ذلك باللغة الانجليزية ، مرحى ، مرحى ! فهل يرى الأستاذ أن تأليف الهنود فى الشريعة والتاريخ الاسلامى باللغة الانجليزية يصل السلسلة المقطوعة بحلقة ، أو يقيم على الهوة السحيقة بين الشرق والغرب قنطرة ؟ وهل يُسَرّ الأستاذ ويقنع إذا هو وجد فى المصريين من يؤلف بالانجليزية أو الفرنسية او الألمانية ؟ وهل يعد ذلك إيجادا للحلقة المفقودة ؟ وهل يرى فى هذا الضرب من التأليف فرقا بينه وبين كتابات المستشرقين من أمثال بَرون ، ونِيكِلسُنْ ، وجِبْ ، ودِرْمِنجِهمْ ، وديتريصى ، وفلوجل وأضرابهم ؟

إن الحلقة المفقودة لا تتحقق فى أمة من الأمم إلا بما اشترطه الأستاذ أحمد أمين نفسه ، فى مستهل مقالته ، من أن يكون التأليف بلغة الأمة ، وبلغتها العصرية : « لا أمل فى إصلاح هذه الحال إلا بالعمل على

إيجاد الحلقة المفقودة وهى تذوق الثقافتين ، والاغتراف من المنهلين ، وإخراج أدب وعلم وفلسفة غذيت بما للعرب والإسلام من ثقافة ولقحت بما للأوربيين من ثقافة ومنهج . فيها اللغة العربية قوية رصينة ، وروح الإسلام قوية متينة . وفيها ما للأوربيين من عرض للمسائل جذاب ،

أرأيت ياصديقى أنك تكيل ، فى المقالة الواحدة بمكيالين ، فتعد اللغة الوطنية أساساً فى الحلقة المفقودة المصرية . ولا تقيم لها وزنا فى الحلقة المفقودة الهندية ؟

وبعد فإنى أعتذر للقراء إن كنت قد أطلت ، وأحتكم إليهم فيما سطرت ؛ وأسأل الله تعالى التوفيق لصديقى ولى فى كل ما تخط أقلامنا .

٢٠ رمضان سنة ١٣٥١ — محمد مهدى علام

١٧ يناير سنة ١٩٣٣ — أستاذ التربية بدار العلوم

تذييل :

يأبى الحق إلا أن يعلن عن نفسه حتى على ألسنة جاحديه ، فقد تأخر طبع هذا الكتاب بضعة أسابيع لأمور قاهرة ؛ فاذا بالأستاذ أحمد أمين يخرج علينا فى العدد الخامس من « الرسالة » باعتراف صريح يلغى به كل ما كان قد تجنى به على رجال دار العلوم فى العدد الأول . ولعل الأفضل أن أترك عبارته تتحدث عن نفسها . قال الأستاذ الفاضل يأسف على أن تراثنا الأدبى ، العربى والإسلامى ، لا يجد من يعنى به إلا قليلا من الناس ، وأن نشأنا معرض عنه : « فلما نشأ الجيل الجديد وقد تعلم أول أمره فى رياض الأطفال ، وأسلمته هذه إلى مدارس ابتدائية وثانوية يجتهد مدرسوها أن يعلموا على أحدث طرق البيداجوجيا ، ويقرأ تلاميذها فى كتب ألفت على غرار الكتب الأوربية فى الشكل والموضوع أصبح

الخريجون لا يربطون جديدهم بقديم آبائهم، وصارت الكتب الأوربية أشهى إلى نفوسهم وأقرب إلى عقولهم من كتب الأدب العربى والفلسفة الإسلامية ».

لقد صدق رأيى فى صديقى الفاضل حينما نزهته عن أن يكون على غير اتصال بالمؤلفات العصرية فى مصر؛ وها هو ذا يعترف فى صراحة العالم العظيم بأن مدرسينا فى المدارس الابتدائية والثانوية لا يعلمون كيفية ضرب زيد عمراً، ولا رؤية الأسد فى الحمام، ولا يعربون البسملة فى أول درس من دروس النحو؛ ولكنهم يعلمون على أحدث طرق البيداجوجيا. ويعترف كذلك بأن لهم فى الأدب واللغة مؤلفات، ولكنها ليست كما وصف فى العدد الأول من الرسالة: « إذا أنتجوا فعيب إنتاجهم أنهم لم يستطيعوا أن يفهموا روح العصر ولا لغة العصر ولا أسلوب العصر وإنما التزموا التعبير القديم فى الكتابة والنمط القديم فى التأليف، وتحجرت أمثلتهم الخ » — بل لهم مؤلفات يصفها هو نفسه بأنها « على غرار الكتب الأوربية فى الشكل والموضوع ».

لقد كان يحزننى أن أكون مع الأستاذ على خلاف فى « بديهية » كتلك التى نحن بصددها؛ ولكننى أحمد الله الآن إذ أصبح الأستاذ يرى بعين منصفة — إلا أن يقصد من مقالته الجديدة أن يرمينا بالبعد عن الثقافة الإسلامية (وهو ماسبق أن أثبته لنا فى المقالة الأولى)، وبأننا من حملة لواء الثقافة الأوربية مما أدى بتلاميذنا إلى كره الثقافة العربية الإسلامية. فان كان هذا هو مايقصده الأستاذ لزمته إحدى نتيجتين: فإما أنه يناقض نفسه — وهو ما أثبتناه فى غير موضع — وإما أنه يقر اعترافيه كليهما: من أننا رجال الثقافة الإسلامية، ورجال الثقافة

الأوربية ، ولا مندوحة له إذن عن التخلى عن رأيه السابق فى « الحلقة المفقودة » . ونحن لا نكلفه مؤونة الاعتذار إلينا ، فحسبه اعتذاره للحق أمام ضميره .

١٩ ذى القعدة سنة ١٣٥١ مهدى علام

١٥ مارس سنة ١٩٣٣

أما بعد فهذه كلمتنا عن « الحلقة المفقودة » — استغفر الله — عن « الحلقة الموجودة » فى رجال العلم والأدب ، لم توجدها كلمتنا المتواضعة ولكنها أثبتت وجودها .

١٣ صفر سنة ١٣٥٣ محمد مهدى علام

٥ يونيه سنة ١٩٣٤ أستاذ التربية بدار العلوم